

اتفق، بل كان يولد أن يظل بعيداً عن مشاغل القيادة ومشاكل  
الرياسة، وما يتصل بها من مطامع ومتاعب، ولذلك تار  
وغضب لافوتج في أسراستاد الرياسة إليه، ولكن إصرار  
العلماء والأعيان وأصحاب الشأن في منطقة «آوار» مهد  
الحركة الثورية وإجاءهم على ضرورة قيامه بقيادة هذه الحركة  
— جعل شاملاً يستجيب لصوت الواجب، ورضى أن يتولى  
الإمامة — كما كانوا يسمونها — بمد سلفيه الغازي محمد  
وحزرة بك.

إن تولى شامل قيادة الثورة الوطنية الدينية في الداغستان  
كان نقطة التحول في هذه الحركة، فقد تبدل فيها كل شيء  
وتغير، وانتشرت روح الحركة والنشاط في كل أنحاء، وظهرت  
نواحي المنظمة والمبقرية في هذا القائد الجديد سريعاً، فبدأت  
الحركة وظهر النشاط في الثورة والثوار، واشتملت نار الحماسة  
في صدور أولئك الجبليين من أهل القرى والأكواخ، وبحول  
الثورة التي سارت خمسة أعوام في بطء وهواودة إلى حرب منظمة،  
وقيادة محكمة وجنود مدربين، وأنظمة مالية وقضائية كأحسن  
ما تكون الأنظمة المالية والقضائية في البلاد، وأنشأ الإدارة المدنية  
في كل مدينة أو قرية وقت تحت سلطانه.

كان كل شيء قبل تولى شامل الرياسة يسير على الفطرة  
والطبيعة المهادنة البدائية، لا أثر للنظام والإحكام فيه، كان واجباً  
على المتطوع أن يكفي نفسه ويمونها بما هي في حاجة إليه من غذاء  
وكساء وسلاح، فوق ما يصاب به في نفسه وماله، وما يلحقه  
من جراء اشتراكه في الثورة من متاعب وخسائر.

ولم يكن لهؤلاء المتطوعين نظام يسيرون عليه، وتدريب بمد  
للأعمال الحربية، فكان كل واحد منهم يقوم بما يستطيعه تحت  
مسئولته وعلى حسابه، وعلى الوجه الذي يترأى له

وكما لم يكن هناك — قبل رياسة شامل — نظام للمتطوعين  
وتدريبهم فإنه لم يكن عندهم ما يسمى بالإدارة المالية المنظمة  
لحركة الثورة، فكل شيء كان يسير — كما قدمت — حسب  
الظروف، وعلى أساليب فطرية أولية، لا أثر فيها للدقة، ولا  
للنظام والأحكام.

فلما تولى شامل قيادة الثورة أنشأ — أول ما أنشأ —

قيادة الإصلاح في القرن الثالث عشر:

## الشيخ شامل

زهيم القرفاز وشيخ الجماهيرين

١٢١٢ - ١٢٨٧ هـ : ١٧٩٧ - ١٨٧١ م

للاستاذ برهان الدين الداغستاني

شامل تحت قيادة حمزة بك :

وبعد أن استشهد الغازي محمد الكراوى في معركة يوم  
٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨ هـ اجتمع العلماء والأعيان، وأصحاب  
الشأن في ولاية «آوار» وانتخبوا حمزة بك خلفاً للغازي محمد الكراوى  
وقائداً لحركة الإصلاح الدينية، وحاملاً اسم الثورة الوطنية،  
وسلك حمزة بك طريق سلفه من أخذ الناس بالدين والهواودة،  
ودعوتهم بالمسنى إلى اتباع أحكام الدين، ورعاية آدابه، فأخذ  
يطوف القرى والساكر مرشداً ناصحاً، يدعو إلى دين الله  
والممل به، واسكها أبين — كما أبين سلفه من قبل — أن الدعوة  
التي لا تظاهرها القوة وتسندها، حقيقة بالفشل، فبدأ يجمع  
المتطوعين، وينظم صفوفهم، ويوجههم إلى الماندين الذين كانوا  
يحولون بين الدعوة الإصلاحية وذبوعها، وهنا أيضاً مجد شاملاً يشد  
أزر حمزة بك ويعضده، ويلازمه في جميع حملاته التأديبية، ومشاركه  
الحربية التي خاضها، فإنه كما كان القائد المنك، والمريد الطيع  
لدى الغازي محمد الكراوى ظل كذلك مع حمزة بك أيضاً حتى  
قتل هذا غيلة بينما كان ذاهباً لأداء فريضة الجمعة في قرية  
«خنزخ» في أواخر سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م).

شامل في قيادة الحركة الدينية الوطنية :

بعد اغتيال حمزة بك في أواخر سنة ١٢٥٠ هـ أجمعت  
الأنظار إلى شامل ليقوم بقيادة الحركة التي بدأت من نحو خمس  
سنوات بقيادة الغازي محمد الكراوى، ولكن شاملاً لم يكن  
بالرجل الطامع في قيادة أو رياسة. وحسبه أن يقوم بواجبه كيفما

أقاليمهم بمهمة الحكام لهم ما للحكام من إشراف على مصالح الإقليم ورعاية حقوق الناس وصون أموالهم ونفوسهم ، وتنفيذ الأحكام التي يصدرها القضاة الشرعيون .

وإذا نحن تركنا الناحية المدنية من إنشاء بيت المال وتنظيم الإدارة وما إلى ذلك ، ووجهنا نظرنا إلى الناحية الحربية وأثر شامل فيها . وجدنا الفرق كبيراً والبون شاسعاً بين العهد الذي سبق شاملاً والعهد الذي نشأ بعده تولى شامل للقيادة . فالثورة في عهد النازي محمد الكراوى وحزبة بك كانت أشبه ما تكون بتلك الحركات السلبية التي تظهر في كل بلد على أثر احتلال جديد من قاطع أجنبي ، تظهر هنا مرة ، وهناك مرة أخرى ، وتظهر في آن لتختفي في أحيان ولكن الحال في عهد شامل من سنة ١٢٥٠ - ١٢٧٦ هـ ( ١٨٣٤ - ١٨٥٩ م ) تغيرت تغيراً كبيراً ، فقد أصبحت الثورة حركة عامة شاملة ، وأصبح لها قيادة رسمية ومقر بصرف الأمور ، ويوجه الحركات ، ويتلقى الأنباء ، ومعتقالات لإبواب الأسرى ، وسجون لجسب الخارجيين على أحكام الشريعة ، أو من صدرت ضد أحكام قضائية .

وأنشأ الشيخ شامل حكومة وطنية في الداغستان . كانت في كثير من الأوقات - مدى ربع قرن - تسيطر سلطانها على أغلب البلاد الداغستانية ، وتنفذ فيها أحكام الشريعة الإسلامية .

وإن مما يميث على العجب والإعجاب مما أن يستطيع الشيخ شامل الصمود أمام قوات القيصرية الروسية خمسة وعشرين عاماً ونيقاً يناضل في سبيل دينه ووطنه من غير أن يكون له سند يسند ، أو معين يمينه غير إيمانه بالله ، وقوة عزيمته ، وصبره ومصابرته على المكارة والشدائد في سبيل الله . وإذا كان في هذا الصبر وذلك الصمود أمام قوات تلك الأباطورية العظيمة مدى ربع قرن ما يثير الإعجاب ويبيث على العجب ، فإن ما سجله التاريخ لهذا المجاهد البطل من انتصارات باهرة على كبار القواد الروسين في مارك مشهورة فاصلة - نعم إن تلك الانتصارات العجيبة تبيد إلى الذهن ذكرى فتوحات النزاة المسلمين في عصر ظهور الإسلام وانتشاره والصدر الأول من حياة المسلمين .

على أنه - رحمه الله وأحسن إليه - لما اضطر إلى التسليم آخر الأمر لم يرض أن يسلم نفسه إلا على شرط أن يسلم هو ومن معه

بيت المال على حسب نصوص الشريعة الإسلامية ، وعين لهذا البيت الحياة والأمناء والعاملين ، وجعل للمتطوع حقاً معلوماً في الفئام ، فكان يحمس كل ما يصل إلى يده من أموال الأعداء ، فيضم خمسه إلى بيت المال ، ثم يقسم الأخماس الأربعة الباقية بين المجاهدين المحاربين ، وأحياناً بذلك سنة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين في قسمة الفئام بين بيت المال والمجاهدين تطبيقاً لكتاب الله الكريم وعملاً بما جاء به « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » ( ٤١ - ٨ ) .

فكون بذلك أساس النظام الاقتصادي ، وأمن الناحية المادية في الثورة ، كما أغنى المجاهدين المتطوعين ، وسد حاجتهم بما يتناولونه من الفئام ، ولم يكف بذلك بل وجه نظره إلى نظام الجيوش وتدريب المتطوعين على نظم القتال والحروب ، كما عني العناية البالغة بأمر أسلحة هؤلاء المتطوعين ، وعمل على إبلاغها إلى الحال التي تصلح للقتال بها مع جيوش الروسيين ذات العدد والعدد .

ومع أن هم شامل كاه أو جله كان منصرفاً إلى الناحية الحربية وإعداد المحاربين ، وتهيئة كل الأسباب التي تمكنهم من القيام بواجبهم الوطني على الوجه الأكمل ، فإنه مع ذلك لم يكن ليهمل النواحي المدنية والعمرائية ، فقد كان معنياً جداً بتوطيد نظام القضاء الشرعي في تلك البلاد ، فكان يمين في كل قرية يستولى عليها قاضياً شرعياً يفصل بين أهلها فيما يمرض لهم من أحكام دينهم ، ويقيم حدود الإسلام ، وينفذ أحكامه فيهم .

وليس هذا فقط ، فقد كان يوجه إلى الأقاليم والناطق التي تخضع له « نواباً » عنه يقومون بالإدارة المدنية في تلك الجهات ويشرفون على جميع شئونها . وكانت مهمة هؤلاء النواب في أقاليمهم شبيهة بمهمة المحافظين والديريين ، فكانوا مسئولين عن جباية أموال بيت المال ، وتنظيم حركة المتطوعين ، والمحافظة على السلام والأمن العام ، وحماية السلطة القضائية ، وتنفيذ أحكام القضاة ، وعلى الموم فقد كان هؤلاء « النواب » يقومون في

شامل ومردييه ، فاقترحوا عليه أن يبعث وفداً من قبله لمقابلة خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد خان في القسطنطينية ، وبمد إلحاح شديد نزل شامل على إرادة أخوانه ، وألف وفداً من ثلاثة أشخاص اختارهم لهذه السفارة بينه وبين الخليفة ، وحلهم عريضة كتبها باسمه واسم أخوانه المجاهدين الداغستانيين إلى مقام الخليفة العظمى . ولما ندرى مضمون هذه العريضة ، والغاية المرجوة منها ، ولكنها على كل حال لا بد أن تكون عرضاً لأحوال المسلمين في الداغستان ، وربما كانت متضمنة طلب المون والساعدة المادية أو الأدبية على الأقل من خليفة المسلمين .

وسافر هذا الوفد إلى بلاد الجركس في طريقه إلى القسطنطينية ثم جاوزها إلى بلاد « أباز » على ساحل البحر الأسود ليركبوا من هناك أحد المراكب البحرية إلى عاصمة الخلافة . إلا أن أخبار هذا الوفد كانت قد سبقته ، فوجد الميون والأرصاد في كل مكان فلم يستطع أعضاؤه ركوب البحر لأن عيون الروسيين كانت ساهرة ، وأخيراً استطاع أحد الأعضاء « الشيخ الجركوى » أن يتسلل إلى أحد المراكب بدعوى أنه من الحجاج القاصدين إلى الديار الحجازية وحمل بين طيات ثيابه عريضة الشيخ شامل ، وأوصلها إلى رجال ديوان الخليفة غير أنه لقي مطلا وإهالا غريباً ، ووعوداً كاذبة . وقضى نحوه بعد مرض يسير قبل أن ينال رد الخليفة على عريضة قائده وإمامه الشيخ شامل . وبذلك أسدل الستار على هذه الرواية ( يتبع ) برهانه الربيع الداغستاني

من قواده ومرافقيه إلى خليفة الإلام والمسلمين في القسطنطينية . ولا يتسع هذا المقال الوجيز الذي أكتبه بمناسبة ذكرى وفاته السادسة والمبمين لذكر كل ما ينبغي ذكره من أعمال هذا المجاهد العظيم ، ولذلك سأقتصر على بعض الخطوط والظلال التي تصوره بصورة إجمالية ، وتمطى القارىء فكرة عامة عنه ، كما أذكر بعض الأعمال والحوادث الهامة التي وقعت في عهده ملتزماً في ذلك غاية الإيجاز :

١ - على أثر تولى شامل قيادة الثورة وقيامه ببعض الإصلاحات والتنظيمات أوعزت الحكومة الروسية إلى أحد صنائها شمخال<sup>(١)</sup> غمزانس ، وكلفته الاتصال بشامل بقصد استنائه إلى جانب الروسيين ، وإغرائه وإطاعه في إمارة الجبل ، فانصل الشمخال بالشيخ شامل ، وطاب منه أن يتوجه إلى مقر والى القوقاز في مدينة « تفليس » حتى يعينه هذا الوالى الروسى أميراً على بلاد الداغستان ، إلا أن الشيخ شامل كان يعتبر نفسه أميراً وإماماً لبلاد الداغستان بمبايعة الداغستانيين له وتوليتهم إياه بعد اغتيال المرحوم حمزة بك سنة ١٦٥٠ هـ . ولذلك لم يمر هذا المرض التفاتاً وضرب به عرض الحائط . وفي سنة ١٦٥٣ هـ ( ١٨٣٧ م ) تكررت هذه المحاولة لاستئالة الشيخ شامل ، وإنهاء حال الثورة في بلاد الداغستان ، فقد انصل القائد الروسى الجنرال « كلك » بالشيخ شامل وعرض عليه الذهاب إلى « تفليس » لمقابلة والى القوقاز ، وأكد له أن الوالى سيعينه أميراً على جميع المسلمين في الداغستان ، ورفض الشيخ شامل هذا المرض أيضاً لأنه كان يمد نفسه أميراً منتخباً من الأهلين بكانل حرياتهم ، فلم يرض نفسه أن يتلقى الإمارة من يد عدوه ومستعمر بلاده ، وعقد الهم على مواصلة القتال حتى يقضى الله أمره ، ثم تكررت هذه المحاولة سنة ١٦٥٥ هـ ( ١٨٣٩ م ) من جانب الروسيين ولكنها فشلت أيضاً .

٢ - فى أوائل سنة ١٦٥٨ هـ انتصر الشيخ شامل على القائد الروسى الجنرال « كرف » انتصاراً باهراً . فى معركة فاصلة حاسمة واضطر هذا القائد الروسى إلى الانسحاب العام ، ولجأ إلى قلعة « شورا » الشهيرة . وكان لهذا النصر وقته الحين بين إخوان

(١) لب يطلق على جنس حكام الأقاليم والرؤساء هناك .

بظهر قريباً جداً:

## أنات الغريب

مجموعة من روائع النصوص

بقلم الأستاذ حبيب الزحلاوى